النقد الادبي ومناهجه

بقلم : سليم زهدي

تنحصر غاية النقد في تحليل العمل الادبي وتقدير ما له من قيمة فنية ، فوظيفته بيان قيمة الاثر الموضوعية والتعبيرية والشعورية وتعيين مكانه في خط سير الادب وتحديد ما أضافه الى التراث الادبي وقياس مدى تأثره بالمحيط وتأثيره فيه وتصوير سمات صاحبه وخصائصه الشعورية والتعبيرية وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوين العمل الادبي وخلقه .

ولم تأخذ كلمة نقد هذا المعنى الاصطلاحي الا منذ العصر العباسي ، اما قبل ذلك فكانت تستعمل بمعنى الذم والاستهجان ، واستخدمها الصيارفة في تمييز الصحيح من الزائف في الدراهم والدنانير ، ومنهم استعارها الباحثون ليدلوا بها على الملكة التي يستطيعون بها معرفة الجيد او الرديء من النصوص . فالعمل الادبي اذن هو موضوع النقد الادبي ، ولعل خير ما يعرف به العمل الادبي هو ذلك التعريف الذي اورده سيد قطب في كتابه « النقد الادبي » اذ قال : « انه التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية » . فكلمة « تعبير » تصور لنا طبيعة العمل ونوعه ، وتجربة شعورية تبين لنا مادته وموضوعه ، وصورة موحية تحدد لنا شرطه وغايته ، فالتعبير عن التجربة الشعورية هو رسم صورة لفظية موحية مثيرة للانفعال الوجداني في نفوس الاخرين ، وهذا شرط العمل الادبي وغايته وبه يتم وجوده ويستحق صفته .

ليست غاية العمل الادبي اذن ان يعطينا حقائق عقلية ولا قضايا فلسفية ولا شيئا من هذا القبيل ، كما انه ليس من غايته ان يحقق لنا اغراضا اخرى خارجة عن ذات التجارب الشعورية ، كأن يحثنا مباشرة على الفضيلة وينهانا عن الرذيلة وان كانت هذه الغايات تتحقق عادة نتيجة لانفعالنا بالعمل الادبي ، ولهذا يجب علينا ان نفرق بين الاغراض المقصودة والنتائج التبعية فالانفعال وحده هو غاية كل عمل ادبي ، اما آثاره الخلقية او الاجتماعية فنتيجة للانفعال قد تقع او لا تقع ، ولا علاقة لها بحكمنا على قيمة العمل الادبية ، وليس معنى هذا ان العمل الادبي لا غاية له ، فالواقع انه هو غاية في ذاته ، لانه بمجرد وجوده يحقق لونا من الوان الحركة الشعورية ، وهذه في حد ذاتها غاية انسانية وحيوية .

ومن الواضح عند أية محاولة تأريخية للنقد بأنه فن مشتق من غيره أو متوقف على غيره ، فالادب يوجد أولا ثم يوجد نقده ، ذلك لان النقد يتخذه موضوعا له ، اذ من غير المعقول ان يوجد النقد بدون ادب يشتق منه قواعده ويسلط عليه مقاييسه ويصور فيه رضاه وسخطه .

والنقد الادبي عند العرب نشأ عربيا وظل عربيا صرفا ، وذلك لان أساس كل نقد هو الذوق الشخصي تدعمه ملكة تحصل في النفس بدون ممارسة الاثار الادبية . ولعل من الخطأ والظلم ان يقال بأن النقد العربي ليس عربي النشأة ، فلقد وجد النقد الادبي بصورته البدائية بعد اول قصيدة شعرية قالها العرب ، اي انه كان ملازما للشعر . ونحن نعلم بان الشعر يثير بفضل خصائص صياغته انواعا خاصة من الانفعال . ومن المؤكد ان تكون هناك استجابات وان يصدر عنها النقد . والذي لا شك فيه ان استجابات العرب لم تكن فاترة وفي اخلاقهم عنف البداوة كما ان في شعرهم ما يحرك ضروبا من الانفعال الشخصي والقبلي .

ولنتساءل الان : هل يمكن ان نسمي هذا النقد الذوقي المنفعل نقدا دون ان يكون في ذلك افساد لحقائق التاريخ او اخلال باصول البحث ؟ والجواب على هذا سهل وبسيط ، فليس من شك في اننا لا نستطيع ان ندرك طعم شراب او طعام ما لم نتذوقه بأنفسنا ، ولا يمكن ان يغنينا عن هذا التذوق الشخصي اي تحليل كيماوي او شهادة خبير ، وكذلك الامر في كافة الفنون : فأي وصف للوحة زيتية او تمثال لا يمكن ان يغني عن الرؤية المباشرة ، وكذلك الامر في الادب ، فذوقنا الخاص هو اساس كل فهم له بحيث يبدو أمرا مشروعا وهو بعد حقيقة واقعة حتى عند العلماء من النقاد المحدثين . فالتأثرية قائمة على اساس كل نقد ، حتى لنرى عالما كـ « لانسون » يقرها ويعترف بها . فالنقد الذوقي اذن نقد مشروع وحقيقة واقعة يقرها منهج النقد الحديث

ضمن شروط خاصة . قلنا ان النقد عند العرب بصفته الذوقية كان ملازما للشعر ، غير ان النقد الذي يقوم على منهج تدعمه اسس نظرية او تطبيقية ويتناول بالدرس مدارس أدبية او شعراء لم تظهر بواكيره الا في القرن الثالث الهجري وما بعد حيث ألف ابن سلام كتابه « طبقات الشعراء » . اما ما يثار من مشاكل حول النقد العربي، فسببه سيطرة أرسطو على العقل البشري قرونا طويلة ، مما ثبت في النفوس النزعة التقريرية التي تستند الى اصول المنطق فتتخذ من التقسيم أساسا للمعرفة ، وهذا ما دعا بعضهم للتساؤل عن منحى النقد عندما يكون ابتداء من القرن الثالث : أهو عربي النزعة ام اغريقي ؟ ورأوا فيه تيارين مختلفين : تيار قدامة بن جعفر الذي حاول وضع علم للشعر وعلم للنثر يقومان على الفروق الشكلية التي مكن لها أرسطو بمنطقه في كل ميادين المعرفة ، وتيار أدباء العرب الذين صمدوا لذلك المذهب فنحوه عن الادب ونقد الادب ، بحيث لم يكن له كبير اثر لديهم ، وانما اثر قدامة وأرسطو بخطابته وشعره ومنطقه بأكمله في نشأة علوم اللغة وبخاصة البلاغة التي هي من أدوات النقد كلها ولكنها ليست اياه .

والذي حدث عند العرب تاريخيا هو ان النقد قد تأثر في منهجه بالعقلية الجديدة التي كونتها فلسفة اليونان والتي اتخذها المعتزلة وعلماء الكلام اساسا لمجادلاتهم في التوحيد والفقه ، وهذا ما يفسر تغير النقد من نقد ذوقي غير مسبب يقف عند الجزئيات ويقفز الى تعميمات خاطئة تجعل من شاعر أشعر الناس لبيت قاله ، الى نقد ذوقي مسبب يحاول ان يقصر احكامه على الجزئية التي ينظر فيها ، فان سعى الى تعميم لجأ الى الاستقصاء واحتاط في الحكم على نحو ما نرى عند الآمدي في كتابه « الموازنة بين الطائيين » .

وتنتهي بنا النظرة التاريخية الى التمييز بين النقد الادبي والتاريخ الادبي . فان النقد سابق للتاريخ عند العرب وأساس له ، واذا صح « ان الادب هو كل المؤلفات التي تكتب لكافة المثقفين لتثير لديهم بفضل خصائص صياغتها صورا خيالية أو انفعالات شعورية أو احساسات فنية » بينما تكون غاية النقد اظهار خصائص تلك المؤلفات . اما التاريخ الادبي فيجمع تلك المؤلفات تبعا لما بينها من وشائج في الموضوع والصياغة ، وعلى هذا يدرس النقد رثاء المهلهل لأخيه كليب والخنساء لصخر وابن الرومي لابنه والمتنبي لأخت سيف الدولة كلا منهم منفردا ، ثم يأتي تاريخ الادب فيؤرخ للمراثي عند العرب فيكون عمله تأريخا لفن أدبي .

ويدرس النقد غزل جميل وكثيّر أو غزل العرجي وعمر بن ابي ربيعة ، ويأتي التاريخ الادبي فيؤرخ للنسيب العذري أو لغزل اللذة الحسية ويكون عمله تأريخا لتيار فني أخلاقي .

والتاريخ يؤيد نفس الحقيقة ، فالنقد الادبي سابق عند العرب للتاريخ الادبي بل هو اساسه الجوهري ، وهذا يبدو واضحا في كتاب طبقات الشعراء لابن سلام ، وذلك لما هو واضح في منهج تبويبه للادب ومن اتخاذ أحكام النقد كتقسيم الشعراء وفقا لمبدأ الزمان والمكان والمميزات الفنية . ولقد فطن ابن سلام الى كثير من الشروط التي يجب ان تتوفر في الناقد والنقد ، ومنها الدربة والممارسة وتحقيق النصوص وتفسير الظواهر الادبية كما انه وضع أسسا للمفاضلة بين الشعراء . وظهور ابن قتيبة في نفس القرن لا يغير شيئا من مفهوم النقد عند ابن سلام ، ذلك لان قتيبة قد تناول في كتابه « الشعر والشعراء » مسائل عامة محاولا ان يضع لها مبادىء ، واكتفى بسرد سير الشعراء ونقد بعض اشعارهم على غير منهج واضح كالذي ساعد على خلقه ابن المعتز في كتابه البديع حيث أرسى دعامة من دعائم النقد المنهجي بتحديده لخصائص مذهب البديع ، والظاهرة التي سادت عند اصحاب مذهب البديع لا تشبه في اي صورة مذهب شينييه الذي ظهر في القرن الثامن عشر والذي دعا الى تجديد الشعر الفرنسي ، فقال شينييه بيته المشهور « لنقل أفكارا جديدة في صياغة قديمة » ، فأصحاب مذهب البديع لم يقولوا أفكارا جديدة في صياغة قديمة ، بل حاولوا بوجه عام أن يقولوا الافكار القديمة في صياغة جديدة ، وبخاصة عند أبي تمام الذي لم يكد يجدد شيئا في موضوعات الشعر وانما تجددت المعاني في القرن الرابع والخامس عند المتنبي وابي العلاء .

ولقد أفاد قدامة بن جعفر من الثقافة اليونانية ومما كتب أرسطاطاليس في الشعر والخطابة ، فألف « نقد الشعر » و « نقد النثر » وانبعث النقاد يوازنون ويقاربون لابين المحدثين والقدماء بل بين المحدثين انفسهم فلاحظوا انهم ينقسمون الى مجددين ومحافظين واتخذوا أبا تمام رمزا للجديد والبحتري رمزا للقديم ، واقاموا بين المنهجين المتنافرين مقارنة واسعة نهض بها الآمدي في كتابه « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » ثم نظروا فرأوا المتنبي يتخذ لنفسه اسلوبا جديدا لا يقوم على القديم كما يتصوره البحتري ولا على الجديد كما يتصوره ابو تمام فكان ان كتب علي بن عبد العزيز الجرجاني دراسته « الوساطة بين المتنبي وخصومه » .

وكانت ابحاث الاعجاز القرآني تنمو اثناء ذلك وتنمو معها دراسات البيان فجمع الامام عبد القاهر الجرجاني هذه الدراسات واخضعها لضرب من التفكير العقلي الفلسفي ضمنها كتابه « دلائل الاعجاز » ، وتقف هذه الحركة الدافعة بعد ذلك ، ولم يعد هناك نقاد يبحثون بحثا دقيقا في المذاهب الادبية او في شؤون البلاغة ، وكان عمل النقاد الذين اتوا بعد ذلك كابن رشيق وابن الاثير والسكاكي والخطيب القزويني ينحصر في تلخيص نظريات النقاد القدماء او تنسيقها .

هذه هي صورة النقد العربي في عصوره الماضية ،

ينشأ ساذجا ثم يتطور تطورا حيا ، ولهذا فان اي بحث في مفهوم النقد الادبي الحديث لا بد له من دراسة النظريات والاساليب النقدية التي أتينا على ذكرها ، لان النقد الحديث اصل اصيل من النقد الذي كان في القرن الثالث والرابع الهجري . وما النقد في أدبنا العربي الا امتداد متطور للنقد في عصوره الماضية مع ملاحظة ان النقد في النهضة الادبية الحديثة قد خضع لمفهوم جديد أملته الحياة الجديدة وفرضه الادب الجديد الذي صور هذه النهضة ورسم آمالها وآلامها .

ولقد تعددت مذاهب النقد الادبي الحديث مع تعدد المذاهب الادبية ، فمن النقاد من يرى اليوم ان النقد يجب ان يكون موضوعيا ، وهؤلاء هم اصحاب النزعة العلمية ، وهي نزعة صادقة ولكنها قد تقودنا الى مفهوم خاطىء للأدب ، فالادب في الواقع تعبير عن تجربة شعورية أساسها الوجدان ، وهذه التجارب لا يمكن ان تخضع لميزان الموضوعية البحتة دون اشراك عامل الذاتية والعاطفة والذوق . وفي الحق ان النقد الصحيح يجب ان يخضع لمناهج الموضوعية دون ان يغفل العامل الذاتي ، فالنقد الذوقي كما قلنا نقد مشروع يعترف به النقاد أمثال لانسون وأبركرومبي ، وهذه هي نفس الحقيقة التي أدركها اكثر النقاد في أدبنا الحديث .

قلنا في بدء هذا البحث ان غاية النقد الادبي ووظيفته تتلخص في :

١ ــ تقويم العمل الادبي .

٢ ــ تعيين مكانه في خط سير الادب .

٣ ــ تحديد مدى تأثر العمل الادبي بالمحيط ومدى تأثيره فيه .

٤ ــ تصوير سمات صاحبه من خلال اعماله .

فاذا كانت هذه هي وظائف النقد الادبي وغاياته فما هي المناهج التي تكفل لنا تحقيق هذه الغايات ؟

١ ــ المنهج الفني : وهو ان نواجه الاثر الادبي بالقواعد والاصول الفنية المباشرة فننظر في نوعه اقصيدة هو أم رواية أم خاطرة أم مقال أم بحث ثم ننظر في قيمه الشعورية وقيمه التعبيرية ومدى ما تنطبق على الاصول الفنية ، وفي حدود هذا المنهج نملك ان نواجه العمل الادبي فنحكم عليه حكما تقريريا قائما على دعامتين : الاولى تأثرنا الذاتي بهذا النص ، ذلك التأثر المنبعث من ذوقنا الخاص وتجاربنا الشعورية والفنية السابقة ، والثانية نظرتنا الموضوعية على قدر الامكان الى القيم الشعورية والتعبيرية الكامنة في هذا العمل .

٢ ــ المنهج التاريخي : اما اذا رغبنا في ان ندرس مدى تاثر العمل الادبي او صاحبه بالوسط ومدى تأثيره فيه او رغبنا في دراسة الاطوار التي مر بها فن من فنون الادب او لون من الوانه أو في معرفة مجموعة الآراء التي أبديت في عمل أدبي أو في صاحبه لنستدل منها على لون التفكير السائد في عصر من العصور ، أو اذا حاولنا ان نجمع خصائص جيل أو أمة في آدابها ، فاننا نصل الى المنهج التاريخي .

٣ ــ المنهج النفسي : العنصر النفسي أصيل بارز في العمل الادبي ، واذا نظرنا الى صميم الاثر الادبي ، استطعنا ان نلمس العنصر النفسي في كل مراحله لان العمل الادبي هو استجابة معينة لمؤثرات خاصة ، وهو بهذا عمل صادر عن مجموعة القوى النفسية ونشاط ممثل للحياة النفسية وهو لذلك يستدعي استجابة معينة في نفوس الآخرين ، فالخصائص الشعورية مسألة نفسية بحتة .

والناقد الذي يتبع المنهج النفسي يرى نفسه امام تساؤلات لا بد له من دراستها والاجابة عليها .

كيف تتم عملية الخلق الادبي ، وما هي طبيعته من الوجهة النفسية والشعورية ، وما هي دلالة العمل الادبي على نفسية صاحبه ، وكيف يتأثر الآخرون بالعمل الادبي عند مطالعته ؟ ان استطاع ان يجيب على هذه الاسئلة سار نقده وفق المنهج النفسي .

والمناهج بصفة عامة في النقد تصلح وتفيد حين تتخذ منارات ومعالم ، ولكنها تفسد وتضر اذا جعلت قيودا وحدودا ، شأنها في هذا شأن المدارس في الادب ذاته فكل قالب هو قيد للابداع .

ولقد سلك النقد العربي الحديث في احيان كثيرة طريق المنهج المتكامل الذي يجمع بين المناهج الثلاثة السابقة ، ونستطيع ان نرى أمثلة لهذا في كتابي الدكتور طه حسين عن المعري وفي كتبه عن المتنبي وحديث الاربعاء ، كما نرى أمثلة ذلك في كتب العقاد عن ابن الرومي وشاعر الغزل وجميل بثينة .

ان المنهج المتكامل لا يعتبر النتاج الفني افرازا للبيئة العامة ولا يحتم عليه كذلك ان يحصر نفسه في مطالب جيل من الناس ، فالاديب في عصر من العصور قد يعبر عن اشواق انسانية للجنس البشري كله ولمشكلات هذا الجنس الخالدة التي لا تتعلق بوضع اجتماعي قائم ، انما تتعلق بموقف الانسانية كلها من هذا الكون ومشكلاته كالغيب والقدر والضمير والشوق والتلهف للقاء .

وهذه كلها لا تتعلق بزمان ولا بيئة ولا عوامل تاريخية ولم يكن ابن الرومي يعبر عن ذاته وانما عن موقف انساني خالد عندما يقول :

الا من يريني غايتي قبل مذهبي ... ومن اين والغايات بعد المذاهب

اللاذقية — **سليم زهدي**

طبعت على مطابع :

دار الغد للطباعة والنشر

شارع سوريا - بناية بردويل

بيروت (لبنان)

تلفون : ٢٢٩٢١